تاريخ إيران الحديثة

A History of Modern Iran

تحرير: إرفاند أبراهاميان — *Author: Ervand Abrahamian*

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، 2014 — *Publisher: National Council for Culture, Arts and Letters*

مراجعة: عاصم محاميد — *Reviewed by: Asem Mahamid*

عدد الصفحات: 312 — *Pages:* 312

يغطّي الكتاب ما يُطلَق عليه: القرن العشرون الطويل في إيران؛ أي بدءًا من أصول الثورة الدستورية في نهاية تسعينيات القرن التاسع عشر، حتى توطيد دعائم الجمهورية الإسلامية في بدايات القرن الحادي والعشرين.

يناقش الكتاب تاريخ إيران الحديث، الذي يُعَدّ مرحلة مهمّة تمتد من نهايات القرن الـ19 حتى بدايات القرن الـ21، وبذلك تدخل فيها مرحلة قيام الثورة الإسلامية التي يُعَدّ حدثًا مفصليًّا في التاريخ الإيراني المعاصر.

قسّم الباحث كتابه إلى ستة فصول متنوعة غطّى فيها هذه المرحلة من تاريخ إيران بالتفصيل، وختم الكتاب بملحقين مهمّين: أوّلهما عرض تسلسل زمني لأهم المحطات التاريخية في إيران الحديثة، وثانيهما التعريف بأبرز الشخصيات السياسية والدينية والفكرية الإيرانية في هذه الفترة.

(مستبدّون ملكيون): الدولة والمجتمع تحت حكم القاجار

ذهب الكاتب إلى أن حكم القاجاريين لإيران كان من خلال تلاعبهم المنظم بالانقسامات الاجتماعية، وخصوصًا الاختلافات العشائرية والقبلية والعرقية والإقليمية والطائفية، أكثر من اعتماده على المؤسسات البيروقراطية، والقسر، أو الجاذبية الكبرى للاهوت والتاريخ؛ رغم أنهم لم يمنعوا ذلك، وكانت دولتهم -لو جاز أن نطلق عليها ذلك- تحوم فوق المجتمع أكثر ممّا تتحكم أو تتوغل فيه. وقد ادّعت دولة القاجاريين لنفسها سلطات متضخّمة رنّانة، غير أن شرعيتها الحقيقية كانت محدودة بشدة لا تتعدى حدود ضواحي العاصمة.

وكانت غالبًا ما تُوصَف بأنها دولة من طراز «الاستبداد الشرقي»، لكن سلطتها الفعلية ارتكزت بشدة على أقطاب محلية، بعضهم كان متزوجًا من الأسرة الحاكمة، ومعظمهم كانت لهم مصادرهم المستقلة من القوة. وكان للشاه، المالك الفخور

DOI:10.36360/1560-013-002-012

بألقاب متنوعة، ومن ذلك الحكم الأعلى، أن يضيف إلى ألقابه لقبًا آخر ملائمًا له هو: المتلاعب الأكبر! كان شاه الشاهات، وملك الملوك، بأكثر من معنى.

الفصل الثاني: الإصلاح، الثورة، والحرب الكبرى

تناول المؤلّف في هذا الفصل الثورة الدستورية وأسبابها، وما نتج عنها على مستوى الدولة والمجتمع، ووصف الثورة الدستورية الإيرانية بأنها مثل الثورات الأخرى؛ بدأت بتوقعات عظيمة، لكنها غاصت في نهاية المطاف في بحر عميق من خيبة الأمل، إذ وعدت بـ«فجر عصر جديد» و«مدخل إلى مستقبل مشرق» و«إحياء لحضارة قديمة». بينما أنتجت عصرًا من الصراع اقترب بالبلاد من حافة التفكك.

نجحت الثورة بداية إلى حد كبير بسبب افتقار النظام إلى آلية تقمع المعارضة، وبالمثل، أخفقت الثورة في النهاية إلى حدّ كبير أيضًا؛ بسبب افتقارها إلى آلية لتوحيد القوة ودمجها، ولاسيما افتقارها إلى آلية لتطبيق الإصلاحات.

مثّل عام 1906 عهدًا مهمًّا في التاريخ الفارسي، شهد تقدّمًا في المؤسسات البرلمانية. وكانت الأوضاع في فارس قد تطورت بحيث أضحت لا تُحتَمل، إذ كان الشاه قد وقع كليًّا في أيدي حلقة فاسدة من الحاشية تعيش على التكسب من الحكومة والبلد. وباع الشاه الثروة التي ورثها عن والده، وكذلك معظم الأراضي الإمبراطورية والوطنية، فاضُطرّ للجوء إلى الديون الخارجية، التي أنفق عائداتها على الرحلات الخارجية أو قام بتبذيرها على حاشيته. وبذلك كان هناك عجز سنوي دائم، وكان دين البلد يتزايد يوميًّا... ثم لم يبق طريق للحل سوى الحصول على قرض خارجي جديد، وكان من المعتقد على نطاق واسع أن القرض سوف يُمنَح وفق شروط ستعني عمليًّا القضاء على استقلال البلد.

بحلول عام 1920 كانت إيران دولة كلاسيكية فاشلة بحسب المصطلحات الحديثة، فوجود الوزارات خارج العاصمة كان محدودًا. ولم تكن الحكومة قادرة على الحركة، لا بسبب التنافس بين الأقطاب التقليديين والأحزاب السياسية الجديدة فقط، بل بسبب الاتفاقية الأنجلو- فارسية أيضًا. وكانت بعض المقاطعات في أيدي أمراء الحرب، والأخرى في أيدي المتمردين المسلحين.

القبضة الحديدة للشاه رضا

بنى الشاه رضا دولته الجديدة على عمودين أساسيين: الجيش والبيروقراطية، وخلال فترة حكمه عظُم الجيش بمقدار عشرة أضعاف، والبيروقراطية بمقدار سبعة أضعاف. وصل العدد الإجمالي للعاملين في الجيش في عام 1921 إلى 22 ألفًا؛ نحو 8 آلاف من فرسان لواء القوزاق، و8 آلاف من الجندرمة، و6 آلاف من رجال رماة جنوب فارس. وبحلول عام 1925، بلغ عدد الجيش 40 ألفًا من القوات وُحِّدت تحت إمرة وزارة الحرب. وبحلول عام 1941 ارتفع العدد إلى أكثر من 127 ألفًا. ولكن بحلول عام 1941، كانت لديها 11 وزارة كاملة توظّف أكثر من 90 ألف موظف في الخدمة المدنية وهم يتلقون رواتب، بينما كانت كبرى الوزارات: الداخلية والتعليم والعدل موجودة بصعوبة في عام 1921م.

في العادة يُنظَر إلى الشاه رضا على أنّه ملك عظيم، ويُوصَف بأنّه «مصلح» و«مُحدث»، بل «علمانيّ».

والحقيقة أنّ هدفه من إقامة مؤسسات جديدة كان تمديد سيطرته؛ بتوسيع قوة دولته إلى كل قطاعات البلد في سياسته، واقتصاده ومجتمعه، وأيديولوجيته. والميراث الذي تركه وراءه هو الآثار الجانبية لمثل هذا الدافع المنفرد لخلق دولة مركزية قوية.

كسب الشاه سلطة مطلقة على النظام السياسي أساسًا، عن طريق تحويل المجلس من مركز قوة للأرستقراطية إلى خاتمة مرنة؛ فخلال العهد السابق، منذ المجلس الثاني في عام 1909 حتى المجلس الخامس في 1925، كان بوسع السياسيين المستقلين والأقطاب الريفيين أن يسوقوا التابعين والفلاحين إلى مراكز الاقتراع.

وكان الشاه رضا أيضًا يختار الوزراء بنفسه؛ لكي يحقق الخضوع والاستقرار. فخلال العقدين السابقين (1906–1925) حينما كان البرلمان يشارك في تشكيل الحكومات شهدت البلاد خمسة وثلاثين تغييرًا في منصب رئيس الوزارة، وستين تغييرًا في مناصب الوزراء. وخلال الأعوام الخمسة عشر التالية (1926–1941) كان هناك عشر وزارات فقط وثمانية تغييرات لمنصب رئيس الوزارة.

ثورة الشاه محمد رضا البيضاء

استأنف الشاه محمد رضا بعد عام 1953 ما كان والده قد أُرغِم على تركه في عام 1941. فقد استأنف القيادة بالسرعة القصوى؛ لأجل توسعة الأعمدة الثلاثة التي تقيم الدولة: الجيش، والبيروقراطية، ونظام محسوبية القصر. ومن عدة أوجه، تُعَدّ فترة حكمه استمرارًا لحكم والده، مع بعض التعديلات الطفيفة. فبينما كان الوالد قد حكم خلال عصر الفاشية، وتحدث عن جعل القطارات تتحرك في ميعادها المضبوط، عاش الابن في أوج الحرب الباردة، وبهذا فقد ابتعد عن لغة الحكم الفردي والعنصرية. ولكن حتى في قمة قوته، لم يستطع مقاومة إضافة اللقب الجديد آريا مهر شمس الآريين إلى قائمة الألقاب الملكية التي تمجّده. وقد حقق الشاه محمد رضا حلم الشاه رضا ببناء هيكل دولة ضخم.

فاق الإنفاق العسكري لإيران الإنفاق في جميع الدول القوية في المحيط الهندي، ومن تلك أستراليا، وإندونيسيا، وباكستان، وجنوب إفريقيا والهند. كما خطط الشاه أيضًا لإنفاق ما يُقدَّر بنحو 33 مليار دولار –يقول بعض الخبراء إن هذا ربما يزيد ثلاثة أضعاف– من أجل بناء نحو 20 مفاعلاً نوويًّا بحلول عام 1994. ولو تحقق بناء هذه المفاعلات مع مساعدة ألمانية، وفرنسية، وأمريكية، لجعل إيران أكبر منتج للطاقة النووية في كامل منطقة المحيط الهندي.

استخدم الشاه الجيش والبيروقراطية ومحسوبية البلاط لتحزيم الوزارة والبرلمان برجاله. وقد عدل الدستور، معطيًا لنفسه سلطة اختيار رئيس الوزارة. كما زاد أيضًا من حجم المجلس إلى 200 نائب، ومدته إلى أربع سنوات كاملة.

استغل الشاه القوة الجديدة التي اكتسبها لكي يقوم بتغييرات في المجتمع الأوسع. وقد بدأ ببطء مع برامج متواضعة وضعت لكي تكمل ما كان قد بدأه أبوه. وسرع الإيقاع بعد عام 1963، حينما دشّن الثورة البيضاء التي صُمِّمت بوضوح لمواجهة ثورة حمراء محتملة من الأسفل. وقد تفوّق على والده بحفلة تتويج كُلِّفت عدة ملايين من الدولارات

لم يتوّج نفسه فيها فقط، لكنه أقدم أيضًا على تتويج زوجته الجديدة فرح ديبا. وقد استغل إلى أقصى حد الطفرة النفطية، إذ أعلن أن إيران كانت على أبواب حضارة عظيمة، ومستقبلها سوف يكون أكثر تألقًا من ماضيها، متضمنًا في ذلك الإمبراطوريات الإخمينية الساسانية، والبارثية، وسوف تفوق مستويات معيشتها قريبًا مستويات المعيشة في أوروبا، وسوف تنتج طريقة في الحياة تتفوق على كل من الرأسمالية والشيوعية، وسوف تكون حقيقة خلال جيل واحد- خامس أقوى بلد بعد الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتي، واليابان، والصين.

تضاعفت التوترات الاجتماعية الراديكالية السياسية لا بين المثقفين والطبقة الوسطى الحديثة فقط، بل بين العلماء والطبقة الوسطى التقليدية أيضًا. كانت الشخصيتان البارزتان في صياغة هذه الراديكالية هما: علي شريعتي، وهو عالم اجتماع تعلم في فرنسا، وذو شعبية مرتفعة بين طلاب الكليات والمدارس العليا، وآية الله روح الله الخميني، الذي نُفِي بعد عام 1963 لاتهامه الشاه بمنح الأمريكيين امتيازات. بالنسبة إلى بعض المحللين، كان شريعتي، الذي مات في عام 1977، هو المنظّر الحقيقي للثورة الإسلامية. وبالنسبة إلى آخرين لم يكن الخميني فقط قائد الثورة، بل الفقيه أيضًا الذي صاغ مفهوم ولاية الفقيه: وهو حجر الزاوية للثورة الإسلامية المستقبلية. وُصِمت ثورة 1979 بأنها أصولية، لكنها في حقيقة الأمر كانت مركّبًا معقّدًا من الوطنية الشعبوية السياسية والراديكالية الدينية.

الجمهورية الإسلامية

لم تقم الثورة بسبب هذا أو ذاك من الأخطاء السياسية التي حدثت في اللحظات الأخيرة، بل نشبت مثل بركان بسبب ضغوط سحيقة كانت تتراكم بشكل متزايد على مدى عقود في عمق أحشاء المجتمع الإيراني. وبحلول عام 1977 كان الشاه يجلس على هذا البركان، بعد أن انسلخ عن كل قطاع من قطاعات المجتمع تقريبًا. إذ بدأ حكمه الفردي بمعارضة متشددة من الإنتلجنتسيا والطبقة العاملة الحضرية. وتكثفت هذه المعارضة على مر الأعوام. وفي عصر الجمهورياتية، تباهى بالملكية، والشاهية، والبهلوية. وفي عصر القومية، ومعاداة الإمبريالية، جاء إلى السلطة كنتيجة مباشرة لإطاحة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وجهاز المخابرات البريطاني بمصدق معبود القومية الإيرانية. وفي عصر الحياد، سخر من عدم الانحياز ومفهوم العالم الثالث. وبدلاً من ذلك عيّن نفسه رجل شرطة الولايات المتحدة في الخليج، ووقف في صف الولايات المتحدة علنًا في قضايا حساسة مثل فلسطين وفيتنام. وفي عصر الديموقراطية، شدّد ببلاغة على مناقب النظام والانضباط، والتوجيه والملكية، واتصالاته الشخصية مع الله.

منحت الحرب الإيرانية- العراقية الدولة الإسلامية دافعًا فوريًّا للتوسع، فالحرب التي بدأها صدام حسين -غالبًا بسبب استعادة السيطرة، والحكم على المجرى المائي شط العرب- استغرقت ثماني سنوات كاملة. وقد طردت إيران العراق خارج أراضيها في مايو 1983، ثم تقدّمت داخل أراضي العدو مع شعارات: الحرب الحرب حتى النصر»، و«الطريق إلى القدس يمرّ عبر بغداد». لجأت إيران إلى حرب الخنادق وإستراتيجية التعبئة الكاملة،

وهو ما يذكّر بالحرب العالمية الأولى. وفي هذا الوقت كان يُعتقَد أن إيران قد فقدت أكثر من مليون شخص. وقد قدّر المتحدث باسم الحكومة عدد القتلى في ساحة المعركة بـ160 ألفا كقتلى. وأضاف آخرون أن هناك 30 ألفًا آخرين قُتِلوا لاحقًا ن جراء إصاباتهم في أثناء المعارك، وأن 16 ألف مدني قُتِلوا في قصف المدن، وأن أكثر من 39 ألفًا عانوا إصابات دائمة كثير منهم بسبب الغازات والأسلحة الكيماوية. وقد قُدِّر أيضًا أن هناك 23 ألفًا آخرين عانوا اضطرابات عصبية، التي عُرِفت في الحرب العالمية الأولى باسم «صدمة القذيفة». ولا شكّ أنه كانت للحرب عواقب طويلة المدى.

دخلت إيران القرن الحادي والعشرين بوصفها قوة إقليمية رئيسة في الخليج العربي بكل تأكيد، إن لم يكن في كامل إقليم الشرق الأوسط. فبتعداد سكانها البالغ نحو 70 مليون نسمة تُعَدّ إيران أكبر بلد في الإقليم. وتؤدي دورًا رئيسًا في منظمة البلدان المصدرة للنفط، فهي ثالث أكبر منتج للنفط في العالم، يتوافر لديها أكبر ثالث بل ربما أكبر ثاني احتياطيات مؤكّدة من النفط والغاز في العالم.

وإن بزوغ إيران بوصفها قوة إقليمية وضعها في موضع الصدام مع قوى رئيسة أخرى في الإقليم كالولايات المتحدة خصوصًا مع احتلال الأخيرة الحديث لكل من العراق وأفغانستان إلى جانب إقامة قواعد عسكرية في القوقاز وآسيا الوسطى، فضلاً عن القواعد القديمة في تركيا ودول الخليج. وقد تعقّدت علاقاتهما أكثر مع حقيقة أن الشيعة في المنطقة: في العراق، أفغانستان، لبنان يرنون بأبصارهم إلى إيران، بوصفها حاميتهم الرئيسة ضد التهديدات المحلية والخارجية. وقد تركز النزاع الأمريكي- الإيراني حديثًا على القضية المتفجرة للغاية حول التكنولوجيا النووية. تصرّ إيران بحميّة على حقّها في تطوير مثل هذه التكنولوجيا، وتستند إلى القانون الدولي، وإلى حاجتها إلى مصادر بديلة للطاقة، والحق غير المتنازع عليه للدول النامية في دخول العالم الحديث بتسخير ما ترى أنه الجانب الأكثر تقدمًا من العلم. وتضيف أنها ليست لديها أي نية للتوسع في برنامجها النووي الحالي لإنتاج الأسلحة النووية. بينما تصرّ الولايات المتحدة بحمية مماثلة على عدم الثقة بإيران فيما يتعلق بالتكنولوجيا النووية؛ لأن نيتها الحقيقية هي تطوير أسلحة دمار شامل. ومثل هذه الأسلحة، كما تدعي الولايات المتحدة، لن تنتهك فقط القانون الدولي، بل سوف تغيّر أيضًا من توازن القوى الشامل في الإقليم، وستفرض تهديدًا حتميًّا على «إسرائيل»، والمملكة العربية السعودية، ودول الخليج؛ فضلاً عن تهديدها للوجود الأمريكي في الشرق الأوسط. وربما سيجيب العقد القادم عن السؤال حول كيف سيمضي هذا الموضوع المتفجر: بانسحاب هذا الطرف أو ذاك، أو بالتفاوض حول حل وسط بحيث تتعلم القوتان التعايش معًا في الجوار الخطير نفسه، أو بالتصعيد الخطير للنزاع حتى حافة الهاوية الذي يمكن أن ينزلق إلى كارثة تعادل في حجمها كارثة حروب الثلاثين عامًا الأوروبية.

يُعَدّ الكتاب مرجعًا مهمًّا لإدراك تاريخ إيران الحديث وفهمه؛ هذا التاريخ المليء بالأحداث والتقلبات على مستوى الدولة والمجتمع... ويحكي الكتاب كذلك التحول الكبير على مستوى الدولة من بداية القرن العشرين ودخولها فيه بالثور والمحراث الخشبي إلى أن أنهت هذا القرن بمعامل الصلب، وبرنامج نووي يثير ذعر الحكومات العالمية.

politicstoday.org

Are you concerned with the contemporary world,
where human rights are violated, human dignity is trampled, international order is indifferent to any principle or value, and the might silences the right? Then, follow and join **Politics Today** in its endeavor to understand and analyze the changing nature of international politics.

POLITICS TODAY